

26- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

[وقوله: { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَأْتِرُهَا نَاطِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ } [القيامة: 22، 23]. { عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ } [المطففين: 23]. { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ } [يونس: 26]. وقوله: { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } { ق: 35}. وهذا الباب في كتاب الله كثير، من تدبر القرآن طالبا للهدى منه؛ تبين له طريق الحق. الشرح هذه الآيات استدلت بها المؤلف -رحمه الله- على مسألة النظر إلى الله، أي: النظر إلى وجه الله، ورؤية المؤمنين لربهم في الآخرة وقد دل على هذه المسألة الكتاب والسنة، واتفق عليها سلف الأمة وأئمتها، وأنكرتها المعتزلة والجهمية ونحوهم، وبالغوا في إنكارها. والأدلة من القرآن، منها ما هو صريح، ومنها ما هو مستنبط. * الآية الأولى: من سورة القيامة: { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَأْتِرُهَا إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ } ناضرة بالصاد من النضارة وهي البهاء، يعني: بهية مشرقة، والثانية ناظرة بالطاء: من النظر وهو المعابنة، وأضاف أن النظر إلى الله، فقال: { إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ } ظاهرها أنها تنظر إلى الله تعالى معابنة، عبر بالوجه؛ لأنها محل النظر، فالنظر مركب في الوجه، كذلك قال: { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَأْتِرُهَا } ولم يقل: عيون؛ لأن بالنظر تشرق تلك الوجوه، كما فسرت ذلك السنة. وهذه الآية من أوضح الأدلة ولكن المعتزلة لم يجدوا بدا من تسليط التأويلات عليها، فقال بعضهم: { إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ } يعني: إلى ثواب ربها، وإلى عطاء ربها فجعلوا مقدرًا، وهو خلاف الأصل، فالأصل أنها لا تحتاج إلى تقدير، لا تحتاج إلى شيء خفي، وهذا كما فعلوا في قوله: { وَجَاءَ رَبُّكَ } قالوا: المعنى وجاء أمر ربك، وكما فعلوا في قوله: { أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ } [الملك: 16]. قالوا: من في السماء أمره، وهكذا فعلوا هنا في قوله { إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ } قالوا: ثواب ربها ناظرة، أو إلى نعيمه وجنته، وهذا الإضمار خلاف الأصل. وتأول آخرون حرف الجر بأنه اسم لا حرف، وأنه مفرد الآلاء؟ فقالوا: { إِلَى رَبِّهَا } يعني: آلاء ربها، ناظرة، وهذا أيضا بعيد كل البعد عن مفهوم القرآن، فالقرآن صريح في أن المراد النظر إلى ربها، ولأن الإلي لم يرد بالمفرد لما فيه من الإيهام، وإنما ذكره الله بالجمع في قوله: { قِيَاءُ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى } [النجم: 55]. وفي قوله: { قِيَاءُ آلَاءِ رَبِّكَمَا تَكْتُمَانِ } [الرحمن: 13]. ولم يقل: بالي ربك أو بالي ربكم، عرفنا من ذلك أن تأويلاتهم باطلة، وأن الأولى إجراؤها على ظاهرها. * الآية الثانية: قوله تعالى: { عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ } [المطففين: 23]. كما في سورة المطففين، الأرائك: جمع أريكة، وهي ما يتكأ عليه، يعني: أنهم متكئون فيها على الأرائك، ينظرون. فسر هذا النظر بأنه النظر إلى الله تعالى، فظاهر النظر في الآية أنه النظر إلى الله، وإن كانت محتملة أن المراد النظر إلى ما أعطوا من النعيم والثواب. * الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة يونس: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ } [يونس: 26]. ورد تفسير الزيادة مرفوعًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه النظر إلى وجه الله، كذلك فسره الصحابة كأبي بكر وغيره من الصحابة الأجلاء قالوا: للذين أحسنوا الحسنى: الجنة، وزيادة: النظر إلى وجه الله تعالى الحديث المرفوع رواه مسلم رقم (181) كتاب الإيمان، باب: (إثبات الرؤية"، والترمذي رقم (2552) كتاب صفة الجنة، وأحمد في المسند (4/333) عن صهيب رضي الله عنه، وأثار الصحابة ذكرها ابن كثير وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم [من تخريجات الشيخ ابن جرير]. وإذا نظرنا إلى وجه الله فلا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، يعني: لا يصبهم من النظر قتر وهو الغيرة والتغير، { وَلَا ذِلَّةٌ } أي: مهانة. بل الأمر بعكس ذلك، تشرق وجوههم وتستبشر بالنظر إلى الله. * أما الآية الرابعة: وهو قوله تعالى: { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } { ق: 35}. كما في سورة ق، قد فسر المزيد بالنظر إلى وجه الله، وفسرها بذلك جمع من السلف، { وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } أي: نزيدهم بشيء لم يخطر على بالهم وهو النظر إلى وجه الله تعالى. هذه آيات أربع استدلت المؤلف بها هنا. وهناك أيضا آيات أخرى منها قوله تعالى: { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } [المطففين: 15]. هذه من أوضح الأدلة؛ لأن الله ذكر أن الكفار محجوبون عن ربهم، فدل على أن المؤمنين لا يحجبون، فلو لم ينظروا إليه لكانوا أيضا محجوبين عن ربهم مثل الكفار، فلا يكون هناك فرق، استنبط الدلالة من هذه الآية الإمام الشافعي وبعده الأئمة، قالوا: كيف يكون الكفار محجوبين عن الله، وكذلك المؤمنون؟ إذن لم يكن هناك فرق. قالوا: لما حجب هؤلاء في الغضب، دل على أن المؤمنين لا يحجبون عنه في الرضا. ومن الأدلة أيضا أن بعضهم قرأ قوله تعالى: { وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ تَعَبًا وَمُلْكًا كَبِيرًا } [الإنسان: 20]. قرأها (وَمَلِكًا كَبِيرًا)، وقال: الملك: هو الله أي: أن المؤمنين ينظرون إلى الله تعالى؛ حيث ذكر نفسه بالملك وبالكبر. أما المعتزلة فاستدلوا على نفي الرؤية بالآية الكريمة التي في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى: { لَا تَذَرِكُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُذَرِكُ الْأَبْصَارَ } [الأنعام: 103]. قالوا: الأبصار هي الأعين، قد أخبر الله بأنها لا تدركه، فجعلوا ذلك دليلا على أنها لا تراه، ولكن أهل السنة فسروا الإدراك بأنه الإحاطة، واستدلوا بهذه الآية على إثبات الرؤية لا على نفيها، فقالوا: يراه المؤمنون في الجنة بأبصارهم، ولكن الأبصار عندما تراه فإنها لا تحيط به، لا تدركه الأبصار إذا رآته، فدل على أنه يرى روية بلا إحاطة، أي: لا تحيط به إذا رآته، ففيها إثبات الرؤية، ونفي الإدراك الذي هو الإحاطة، فأصبحت الآية دليلا عليهم، لا دليلا لهم، فأصبحت مثبتة للرؤية؛ لأن فيها نفي الإدراك، فدل على أن هناك رؤية بلا إدراك، واستدل المعتزلة على نفي الرؤية بقوله تعالى لموسى في سورة الأعراف: { لَنْ تَرَانِي } فقالوا: إن موسى طلب الرؤية بقوله: { قَالَ رَبِّ ارْنِي إِلَيْكَ } [الأعراف: 143]. فقال: { لَنْ تَرَانِي } فاستدلوا بقوله: { لَنْ تَرَانِي } على أن الله لا يرى، وقالوا: إن " لن " للنفي المؤبد، فدل على أنه لا يرى، ولكن الآية دليل عليهم لا لهم، فإن موسى -عليه السلام- أعلم بربه من المعتزلة، فلا يمكن أن يسأل شيئا مستحيلا، وأيضا فإن الله ما أنكر على موسى لما طلب الرؤية، كما أنكر على نوح لما طلب نجاه ابنه، وقال له: { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَسَاءَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود: 46]. ولم ينكر على موسى بل قال: { لَنْ تَرَانِي } ولم يقل: إني لا أرى، إني لست بمرئي، إني لا تجوز رؤيتي، إني لا تمكن رؤيتي، فدل على أن الرؤية ممكنة، وقوله: { لَنْ تَرَانِي } هو يعني: لا تقدر على رؤيتي، ثم إن " لن " لا تعيد النفي المؤبد. يقول ابن مالك في الألفية: ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقولته اردد وسواه فاعضدا إذن استعمال " لن " يكون للنفي غير المؤبد، فقولته: { لَنْ تَرَانِي } يعني: في هذه الحياة، وذلك بموجب بنية البشر، فالبشر في هذه الحياة ضعيف لا يقدر على المثول أمام جلال الله وكبريائه، ثم يدل على ذلك أن الله تعالى قال: { وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } فعلق رؤيته على استقرار الجبل، واستقرار الجبل ممكن، وقد علقت عليها الرؤية، وهي عند المعتزلة مستحيل، والله قد علقها على ممكن، والمعلق على ممكن ممكن. ويدل على ذلك أن الله تجلى للجبل، وإذا جاز أن يتجلى للجبل، فبطريق الأولى يتجلى لعباده يوم القيامة، والمعتزلة تنكر تجليه للجبل؛ لأنهم لا يعترفون بأن الله يرى، ولا أنه يتمثل أمام شيء من مخلوقاته. عرفنا بذلك أن هذه الآيات التي استدلتوا بها دليل عليهم لا لهم، إذن هذه الآيات فيها إثبات الرؤية، وسببنا في الأحاديث أيضا حديث جرير الذي فيه: { إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر } أخرجه البخاري برقم (554) في مواقيت الصلاة، باب: "فضل صلاة العصر". ومسلم برقم (633) في المساجد، باب: "فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما"، عن جرير رضي الله عنه. هذه هي الآيات التي أوردها المؤلف مشتملة على جملة من الصفات، ولكنه -رحمه الله- لم يستوف جميع الآيات؛ لأن ذلك سيخرج به عما أراده من تأليف هذه العقيدة المختصرة. * وكذلك قال بعد ما أورد هذه الآيات: وهذا الباب في كتاب الله كثير، يعني: إنما ذكرنا أمودجا، ولم نستقص. * ثم قال: ومن تدبر القرآن طالبا للهدى تبين له طريق الحق، فعليك أن تتدبر القرآن، وإذا تدبرته وأنت تريد طلب الهدى وطلب الدليل الصحيح، فإنه يتبين لك طريق الصواب، خصوصا إذا حسنت نيتك، وأردت بذلك إظهار الحق لا المجادلة بالباطل.